صانعة الدموع

أنا الرجلُ المشبُوبُ القويُّ الذي لا يَخْضَع ،
أنا الرجلُ المُلْتَهِبُ كأنّ روحَه في بَدَنه إعصارٌ من النّار
أنا الرجُل الصَّخْرُ الذي تَقْصَمُ الأحداثُ عليه لترِنّ ثُمّ تنحدِر ؟
بَلِ الرَّجُلُ البركانيُّ الذي لا يغضَبُ ، فإن غَضِبَ تفجّرَ بالبلاء

***

نَفْسي كأنّها قطعةٌ من القَدَرِ فلا تَسْرُها ولا تَسُوءها الأقدار ،
بل كأنّها سُنّةٌ من الأبد يستوي في مرآتها الليلُ والنهار ،
بل كأنّها بعضُ الفلك الذي تجري فيه الشموسُ والأقمار ،
بل كأنّي عالَمٌ مَسْحُور كلُّه ألغازٌ وكلُّه أسرارٌ

***

أنا ذلك الرجُل ما أزالُ وتلك نَفْسي ما برِحتْ
ولكنّ ما هذا البلاءُ الجديد ؟
ما هذا الماءُ المُنْهَمِرُ على خدّيَّ حارًّا دافقًا ؟
لكأنّهُ من رَشَاشِ أمواج البحر في مِلْحِه ومَرارته ؟
وكأنّهُ من طارات الحَمَام النَّوّارة في لذعه وحرارته ،
ولكنّ البحرَ بعيد ، وما في هذه الأرض حُمَم
. . . بل كأنّهُ من قطرات المطر
بَلْ ليس به ، فالمطر عَذْبٌ خَضِر
وإني لأرى السماءَ سافرةً ليس يحْجُبُها سحابٌ
ولو قد كان في السماء سحابٌ ، لقلت : عسى ولعلّ ....

***

ما هذا السرُّ الخفيُّ بينَ جَنْبيَّ ؟
إنهُ ليهزّني كما أهزّ الدَّوحةَ باعدي المفتول ،
إنّهُ ليَغزو ضياءَ قلبي بمثل سواد الليل ،
ولقد عهدتُني مرحًا طروبًا ، فما هذا الفتور ؟ !

... لقد سمعتُ الناس قديماً يقولون في أنفسهم مثل هذا الطائف
سمعتُ قائلَهم يقولُ : ..... هو الهمُّ ،
أجَل إنهُ لهمٌّ ... وإنهُ من همِّ لحَبيب

***

وما هذا ؟ ! جديدٌ ، ما عهدتهُ من قبلُ !
... إنها لتَتَحَسَّسُ بألوانها وتهاويلها ، ...
وانها لتَتَنَفَّسُ من سُرادِقها فترسل من فُتوقها أمثالَ أشعة القمر ، ...
لقد أخذ الفتقُ يستديرُ .... وما هذا القمرُ العجيب؟
ويحي ... ما هذا قمراً .... انهُ لملكٌ كريم ،
ويحي ... انهُ وجهُ غانيةٍ ، وإني لأجدُ في نفسي أني أعرفهُ
آهِ ! أأنت ؟ أأنتِ تلك الحسناء التي رأيتها بالامس ؟

***

أجل ! أنا الحسناء ، والبلاء الجديدُ ما هو إلاّ دموعُ عينيك
البلاء الجديدُ ...؟! دُموع عيني ؟! ..... ما أنتِ !
بل كيفَ استرقتِ أحاديثَ قلبي ؟ .....
إنني قريبةٌ منك وإن طارتْ بي النوى أو طوّحني الفراق ،
إني لأراكَ ... وأسمعك ... وألجُ قلبَك ... وان خيلْتَني بعيدةً عنك ،
وأنا ... أنا التي صنعت لكَ هذه الأحلامَ لأبدُوَ في زينتها ،
وزينتها هذه من بعض معانيَّ

***

إني لأجري منكَ مجرى الدَّم ،
وذاك السرُّ هوَ ما يتطايرُ من دمكَ إذ أسبح أنا فيه ،
وإن ما يتطايرُ منهُ ليقعُ على شجرةِ أفكارك الجرداء ... ،
فبعدَ قليلٍ ما تنفصدُ أوراقها خُضْراً ثم تتفطَّرُ ثم تورق ثم تتلفعُ ،
وإذا شجرةُ أفكارك خضراءُ وارفةُ الظلال
وظلالُها التي أفيءُ — أنا — إليها تسمّيها — أنت — الهمَّ ..... !
لقد جار منكَ لسانُك ... ولكن سوف يرضيني منك شيءٌ واحدٌ ،
سوفَ يرضيني منكَ أنك لن تنساني بعد اليوم وإن لم تلتقِ ....

وأنا ... آه ... إني لن أنساك .... إني أحبك

***

ويحَ غيري ! لقد أصبحتُ أفهمُ هذه اللغة وكنتُ لا أفهمُها !
إنَّ لساني ليذلقُ بها الآن كما كان يرتضعُها من ثدي أمه !
أجل ! لقد ارتضعتُ — صغيراً — من ثدي امي هذه اللغة ؛
ولكني نسيتها لما انفتلتْ قُوَاي واستمرَّ مريري ؛
نسيتُها لما كبرتُ وأصبحتُ رجلاً ...
نسيتُها ... ولعلي نسيتُها وأنا أصارعُ الحياةَ وكانت تريدُ أن تصرَعني
نسيتُها... ولعلي نسيتُ اشياء كثيرة في الميدان
وهناك كلمة لعلها مما نسيتُ في حومةِ الحياةِ....
كلمةٌ مما سمعتُ ، ما فهمتُها ، ودعيني — يا جميلتي — أفهمها وحدي
ما هي الدُّموع ....؟

***

ما هي الدُّموع ...؟
أهي عواطفي ترسلها سحائب شجوني وأحزاني !
أم هي أنفاسي الحارةُ التي كانت روح قُبلاتي...؟
أنفاسي الحارّة التي انعقدتْ لما دفئتْها الحياةُ عالياً في جوّ السماء ...
أهي نفسي تسيلُ على خدّي حين رَبَضتْ عليها الحياةُ بأثقالها فأسالتْها....؟
أم هي إخلاصي وعفتي وروحي تقطرُ من قلبي إذ تعتصره الآلام ؟
أهي كلماتُ حبي الذي لا يتكلم ؟
أم لغة آلامي التي لا تفهمها الا لحظات عيليك ؟..
آه : وما كنت عاجزاً ولقد عجزتُ . ألا فقولي أنت ... ما هي الدُّموعُ ؟

***

أتضحكين ....؟ انك تهزئين مني ... فلستِ عالمة الحب ...
ويلي ... ! أراك اخضعتني ، وكنت الرجلَ المشبوبَ الذي لا يخضعُ ،
وأطفأتِ ناري ، وكنتِ الرجل الملتهب كأنّ روحه في بدنه إعصار من النار ،
وصدعتِ صخرتي ، وكانت الاحداث ترنُّ عليها ثم تتحدرُ ،
واغضبتني ... فالآن حذارِ ان يتفجّر البركانُ بالبلاء

ولكن .... ما أعجزني ؛ وما أعجز البركان !!

***

ومالك الآن يا نفسي ؟ ألست كما كنتِ ؟ لا تتركك ولا تسوءك الأقدار ؟
ألست كما كنتِ ؟ سنة من الايد يستوي في مرآتك الليل والنهار ؟
ألست كما كنت ؟ بعض الفلك الذي تجري فيه الشموس والأقمار ؟
ألست كما كنتِ ؟ عالماً كله ألغاز وكله أسرار ؟
أم أشعة عينيها تجعل من بنائي أحجاراً على أحجار ؟

***

أغضبتَ — أيها الحبيب — ؟ أحزنتَ ... ؟ لا لا تغضب ولا تحزن
إني ما ضحكت من سخر ولا استهزاء
ضحكتُ إذ صُرفتُ عن الصواب وقد ملكته ...
لا تغضبْ ولا تحزنْ ... ألا تعرفُ ما هي الدموعُ .... !
الدموعُ البريئةُ التي تذرفها أنت لاما يبكيهُ الناسُ من محاجرهم ...
هي : ... بل لا لا ... إنها سرٌ صناعتي لنْ أبوحَ به ؛...
ويكفيك من علمها أن تعرفَ أنني — أنا — التي أصنعُها لك ... ،
أنا التي أصنعُ دموعك وأحلامك . وشجونك وآلامك ... ؛
أنا التي أصنعُ لك كلَّ شيء ؛ ...
أنا التي تحبُّك .... ؛ وأنا التي لن تنساك .....

***

ما هذا ؟ أختفيتِ ؟ فإني لا أراك يا حبيبتي ...
ما هذا ؟ أين أنتِ يا صانعة دموعي وآلامي ؟
أينَ أنتِ يا صانعة آمالي وأحلامي ؟
أين أنت ؟ أينَ أنت ؟ إنك تسمعيني ... لقد قلت ذلك
إنك تسمعيني فلماذا لا تجيبين ندائي ؟ لماذا ؟
تعالَيْ ، تعالَيْ ! تعالَيْ واصنعي لي آلاماً ودموعاً أخرى ؛
تعالَيْ ، تعالَيْ ! تعالَيْ واصنعي لي آمالاً وأحلاماً جديدة
أريدُ آلاماً ودموعاً ،
أريدُ آمالاً وأحلاماً

محمود محمد شاكر